الدرس13: مدرسة فيرث ومدرسة علم النّص

أوّلا: تعريف السيّاق

بناء نصي كامل من فِقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة. و دائماً ما يكون سياقُ مجموعة من الكلمات وثيقَ الترابط بحيث يلقي ضوءاً لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها .[1]

هذا التعريف يسمح لنا أن نقول أن السياق هو جوهر المعنى المقصود في أي بناء نصي أو كلامي فهو لا يلقي الضوء على الكلمة والجملة فقط وإنما على النص المكتوب والكلام المجمل من خلال علاقة المفردات بعضها ببعض في أي سياق من السياقات المختلفة.

ثانيا:معنى الكلمة عند السياقيين

معنى الكلمة عند أصحاب نظرية السياق هو استعمالها في اللغة ، أوالطريقة التي تستعمل بها أو الدور الذي تؤديه، مثال: الاستعمالات الآتية **لكلمة دم ((في العاميات العربية دمه فار– دمه يغلي – دمه ثقيل – دمه خفيف – دمه حار – دمه بارد))** في كل سياق وردت فيه من تلك السياقات يلوح معنا جديدا ومختلفا عن غيره. ففي عبارة دمه فار، دمه **يغلي (نجد المعنى هو الغضب والعصبية،**)بينما في العبارة دمه حار (**المعنى مختلف تدل على رجل نشيط وحركي وعامل.)**

ولكن في عبارة دمه بارد (**تدل على الرجل الكسول والخامل الذي لا يحب العمل وإذا عمل يعمل ببطء.)**

ولهذا يصرح رائد نظرية السياق **فيرث** بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة. بمعنى أن الكلمة المفردة لا معنى لها إلا إذا وضعت في سياق جملة.

ثالثا: مدرسة فيرث اللسانية

هي منهج لغوي سياقي عملي تأسست من قبل العالم اللغوي فيرث ليؤكد على وظيفة اللغة الاجتماعية معنى المفردة عند المدرسة واستعمالها أو الوسيلة التي تستعمل بها أو ما تؤديه من دور، فهذه أمور لا نعلمها إلا من خلال السياق وتسييق الوحدة اللغوية وأن يتم وضعها في أكثر من سياق مختلف لمعرفة مرادها.

تسمى بالمدرسة السياقية، فنشأة هذه المدرسة كانت نقلة نوعية في علم اللسانيات، نظرا لأنه أعطى دعمه للموقف السلوكي بسبب صعوبة البحث عن الدلالة التي تعتمد بالمنطق والشواهد الوجودية التي

انتشرت بالفلسفة القديمة، كما أنه انتهج منهجا جديدا لدراسة اللفظ والمعنى على غير المعتاد لاستخدامها الفعلي. كانت رؤيتها أنه يجب أن ينتهي البحث للمعنى بصفته الذهنية ويجب النظر إليه وكأنه "مجموعة مركبة من العلاقات السياقية" إن العمل الوظيفي للدلالة يجب ان تتجسد في موقف فعلي، أي إلى حيز الاستعمال الفعلي، وهو أمر لا يتحقق إلا تحت حدوث سياق الموقف في راي فيرث.

رابعا: مبادئ مدرسة فيرث

تتمثل المبادئ التي انتهجها فيرث في مدرسته السياقية فيما يلي

*انتهج دراسة عن تركيب اللفظ بدلا من التحدث عن العلاقة الثنائية بين المعنى واللفظ، وعن المعنى بما يرتبط بالمركبات التي من الممكن أن يكون مكانه في السياق نفسه، فأتى فيرث بما يسمى "التوزيع السياقي" الذي يعني أن المفردة ما هي مقابل إبدال فسيكون بالمعجم لمفردات أخرى من الممكن أن تحل مكانها في السياق نفسه، ويكون معناها متحداً بالنسبة لما يحدث من تغيير.

* فيرث في دراسته يستفيد أيضا من تراث دوسوسير في الارتباطات الاستبدالية التي وضعها في منهج الإبدال حين تكون العناصر اللغوية داخلة في علاقة عمودية بين العنصر الموضح.

* فيرث أحدث تغييرا مهما جدا في البحث اللساني وتفسير المعنى خاصة إلا أنه لم يجعل نظريته معروضة بشكل كامل يبرز أسسه الفلسفية لأفكاره التي تخص السياقية فإن ما نشره يبلغ فقط حجم كتاب كما ذكر روبينز.

*ظهر المفكر هاليدي بعد وفاة فيرث وسار على نهجه فقدم النهج والتفسير ويفصل بهم نظرية فرث، وجعل لها أبعاد جديدة لتتعدى الجملة إلى أبعد من ذلك لتصل للنص وليس جملة فقط.

و يقول أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم: ((معظم الوِحْدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى. و إن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفُها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها)).

ركز أصحاب نظرة السياق على السياقات اللغوية التي ترد فيها الكلمة و ضرورة البحث عن الكلمة من خلال ارتباطها بكلمات أخرى وبسبب ذلك أدى إلى نفيهم أن يكون الوصول إلى معنى الكلمة وغايتها من خلال النظر إلى المشار إليه أو وصفه أو تعريفه.

وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي. ومعنى الكلمة – على هذا – يتعدد تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها أو بعبارة أخرى تبعاً لتوزعها اللغوي.

خامسا: أنماط السيّاق

1- السياق اللغوي

هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، عندما تتساوق مع كلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق هو بخلاف المعنى الذي يقدمه المعجم، لأن هذا الأخير متعدد ، في حين أن المعنى الذي يقدّمه السياق اللغوي هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم. أوهي ما تلتف حول الصوت والعبارة والجملة من بيئة لغوية، التي تكون ضمن سياقات لغوية مثال ذلك كلمة أشخاص فالمفردات التي ترتبط بها هي امرأة، رجل، ولد.
مثال:

عندما ترد كلمة ((عين)) في العربية – وهي من المشترك اللفظي – في سياقات لغوية متعدِّدة يتبين للدارس ما تحمله من معان مختلفة باختلاف كلِّ سياق ترد فيه. إنَّ كلَّ سياقٍ آتٍ ترد فيه كلمة **((عين))** يقدِّم معنىً واحداً تتجه إليه الأفهام وتترك ما سواه، فلا يقع أيّ اشتراك في السياق، فقولنا:

-عين الطفل تؤلمه : العين هنا هي الباصرة.

- في الجبل عين جارية: العين هي عين الماء.
- العين الساحرة وسيلة لمعرفة الطارق: العين تدلُّ على منظار حديث يركب في الباب.
- هذا عين للعدوّ : العين هنا الجاسوس.

- ذاك الرجل عين من الأعيان: العين هنا السيِّد في قومه

وكذلك نجد أن كلمة (**good**) في الإنجليزية تقع في سياقات لغوية متنوعة. فإذا وردت وصفاً لــ:

-أشخاص: رجل – امرأة – ولد. . (دلَّت على الناحية الخلقية).

- طبيب - معلم - مهني . . (دلَّت على التفوق في العمل والأداء الممتاز).

- مقادير ومحسوسات: ملح – دقيق – هواء – ماء . . (دلَّت على الصفاء والنقاء والخلوِّ من الغش)

ومن المؤكد أن ما ذكر لا ينطبق على أمثلة محددة وكلمات نادرة، إنما ينطبق على غالبية المفردات حين ترد في السياق، ويرجع هذا إلى أن طبيعة المعنى في المعجم تختلف عن طبيعته في السياق. ويشار في هذا الصدد إلى أن السياق اللغوي يوضح الكثير من العلاقات الدلالية عندما يستخدم مقياساً لبيان الترادف أو الاشتراك أو العموم أو الخصوص أو الفروق.....الخ.

2-النمط العاطفي

هو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية - التي تفيد العموم - ودلالتها العاطفية - التي تفيد الخصوص- فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً. كما تكون طريقة الأداء الصوتية كافية لشحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية؛ كأن تُنطَق وكأنها تمثِّل معناها تمثيلاً حقيقياً. ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية.

مثـــــــــال:أ- من ناحية طبيعة استعمال الكلمة في دلالتها العامة ودلالتها العاطفية الخاصة:

كلمتا **جهاد ونضال،** كلمتان مترادفتان إلَّا أنهما تختلفان عند حدود استعمالهما لأن كلَّ مستعمل له انتماء فكري ينحاز له فكرياً وعاطفياً؛ فلكلِّ جمهور نزعة عاطفية تجاه كلمة من الكلمات مع أنها تشترك أو ترادف كلمة أخرى في عموم الموضوع إلا أن لكلِّ كلمة خصوصيتها وجمهورها الذي يحتوي على تجاه فكري معين فكلمة) جهاد (يستخدمها الإسلامي بينما كلمة) نضال (يستخدمها العلماني.)

وهكذا نرى أن في استخدام لفظتي **استغلال واستثمار** تبايناً، فالأولى تحمل قيماً أسلوبية سلبية في حين الثانية إيجابية. بالرغم من أنهما مترادفان،فالأولى تشير إلى أخذ غلة والثانية أخذ ثمرةً.

وهكذا أيضاً لفظة **(كلب)** وما تحمله من قيم عاطفية متباينة. فعند الطفل هو لعبة، وعند المرأة التي تصلي هو نجس، وعند الفتاة هو الذي يشكل الخوف من نباحه، وعند الصياد هو الفرح الأكبر بحفلة الصيد. وهكذا فمستخدم هذه اللفظة يُسبغ عليها من عاطفته، عندما ترد على لسانه، محملة بما تفيض به نفسُه من انفعالات.

ب- من ناحية درجة القوة والضعف في الانفعال:

السياق العاطفي هو الذي يحدد درجة الانفعال قوةً وضعفاً، فالكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية ترد حين يكون الحديث عن أمر فيه غضب وشدة انفعال. فالمتكلم، في هكذا حالة من الشعور الجامح،

يغالي في استخدام كلمات ذات شحنة عاطفية كبيرة، ومعانٍ مغالية لا يقصد معناها الحقيقي. فالذين يتعاركون((**يتذابحون**)) **أو** ((**يقتلون**)) بعضهم بعضاً .فمستخدم هذه الكلمات لا يقصد معانيها الحقيقية.

ج- من ناحية طريقة الأداء الصوتي:

طريقة الأداء الصوتي لها دور فعال في شحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية، كأن تُنْطَق الكلمة وكأنها تمثل معناها تمثيلاً حقيقياً. ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية

3- سياق الموقف

يدل هذا السياق على العلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام. وقد أشار اللغويون العرب القدامى إلى هذا السياق، كما عبَّر عنه البلاغيون بمصطلح))**المقام** ((وقد غدت كلمتهم)) **لكلِّ مقام مقال** ((مثلاً مشهوراً. ويرى الدكتور تمَّام حسَّان أنَّ ما صاغه مالينوفسكي تحت عنوان **Context of situation**سبقه إليه العرب الذين عرفوا هذا المفهوم قبله بألف سنة أو ما فوقها. لكنَّ كتب هؤلاء لم تجد من الدعاية على المستوى العلمي ما وجده مصطلح مالينوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كلِّ الاتجاهات .

إن مراعاة المقام تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات التي تنطبق على الحالة التي يصادفها خوفاً أو تأدباً. بل قد يضطر المتكلم إلى العدول عن الاستعمال الحقيقي للكلمات فيلجأ إلى التلميح دون التصريح.

مثال: ما ورد على لسان الأحنف بن قيس حين سأل معاوية بن أبي سفيان عن رأيه في أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ولده مع أنه لم يكن محمود السيرة في الناس، فقال الأحنف قولته الشهيرة: **أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت** ، فكانت كنايتُه أبلغَ من التصريح وأقدرَ على أداء المعنى من التوضيح.

4 السياق الثقافي

ينفرد هذا السياق بدور مستقل عن سياق الموقف الذي يُقصد به عادة المقام من خلال المعطيات الاجتماعية. لكنَّ هذا لا ينفي دخولَ السياق الثقافي ضمن معطيات المقام عموماً. ويظهر السياق الثقافي في استعمال كلمات معينة في مستوى لغوي محدّد **مثـــــال:** ظهور السياق الثقافي من ناحية استعمال كلمات معينة في مستوى لغوي محدّد:فالمثقف العربي المعاصر عندما يريد أن يعبر بكلمة تدل على

امرأته يقول: زوجة أو مدام ، بينما نجد الرجل العادي البسيط يستخدم كلمة: مَرَه ، على حين يستخدم الرجل المتدين كلمة : حرمة و حريم ؛فالسياق الثقافي له دور كبير في تحديد الدلالة المقصودة من الكلمة أو المفردة التي تستخدم استخداماً عاماً.

سادسا: مميزات المدرسة السياقيّة

لعل أهم الميزات التي يتمتع بها المنهج السياقي هي الآتية:

* أنه –على حد تعبير ألمان -يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ، وعلى حد تعبير فيرث أنه يُبعد عن فحص الحالات العقلية الداخلية التي تعد لغزاً مهما حاولنا تفسيرها، ويعالج الكلمات باعتبارها أحداثاً وأفعال وعادات تقبل الموضوعية والملاحظ في حياة الجماعة المحيطة بنا.

*أنه لم يخرجْ في تحليله اللغوي عن دائرة اللغة ، فنجا من النقد الموجه إلى جميع المناهج السابقة (الإشاري – التصوري– السلوكي(، وهو النقد الذي عبر عنه "ليتش "بقوله)) :إن البحث عن تفسير للظاهرة اللغوية خارج إطار اللغة يشبه البحث عن منفذ للخروج من حجرة ليس لها نوافذُ ولا أبواب. المطلوب منا أن نَقْنعَ بتقصي ما هو موجود داخل الحجرة، أي أن ندرس العلاقاتِ داخل اللغة.

سابعا: علم النّـــــــص

ثمة اختلاف بين الاتجاهات اللسانيَة الحديثة في تعريف النَّصّ، يصل أحيانا حدَ التناقض والإبهام أحيانا أخرى؛ فلا تعريف مُعترف به من قبل عدد مقبول من الباحثين النَّصيين؛ لذا صار وجود تعريف جامعٍ للنَّصّ مسألة صعبة من جهة التَّصور اللغوي، مع هذا تظل محاولة الوصول إلى تعريف يضم أكبر عدد من الملامح الفارقة للنَّصّ محاولة مرجوة؛ فالوصف اللغوي للنَّصّ وصف معقّد يتجاوز حدود ما هو قائم في اللغة والواقعِ اللغويّ إلى ما هو غير قائم في اللغة، والواقعِ الخارجيّ، باعتبار أنّ المادة الفعليَّة التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنَّصِّ.[3]

وترجع صعوبة تحديد النَّصّ إلى ذاتية النَّصّ؛ فالنَّصّ "دائم الإنتاج؛ لأنَّه مستحدث، ودائم التخلف؛ لأنَّه دائما في شأن ظهورا وبيانا ويستمر في الصّيرورة؛ لأنَّه متحرك وقابل لكلّ زمان ومكان؛ لأنّ فاعليته؛ متولّدة من ذاتيته النَّصيَة، وهو إذا كان كذلك فإنّ وضعَ تعريف له يعتبر تحديدا يُلقي الصيرورة فيه، ويُعطل في النهايَة فاعليته النَصيّة.[4]

وقد لاحظ فان دايك أنَّ الجملة لا تتحقق هويتها إلا إذا كانت إلى جانب جمل وتراكيب أخرى ؛ لذلك فإنَّ محاولة وصف الكلام عِبر وصف الجملة هو إجراء غير مضمون النتائج ، وعليه فلا بدَّ من أنْ يكون موضوع الدراسة والوصف وحدة لغوية أشمل ألا وهي النّصّ [5]، وهذا الانتقال من الجملة إلى النّصّ ليس مجرد تحوّل حجمي من وحدة صغرى إلى وحدة كبرى ، بل تحول في المنهج وإجراءاته وأدواته .

وتوصّل اللسانيون إلى إيجاد معايير تمييز النصوص، جمعها (برينكر) في ثلاثة معايير:

1- **وظيفة النص**: وتقوم على نظرية أفعال الكلام قوامها السمات سياقية كانت أو نحوية أو موضوعية؛ فتتفرع النصوص بموجبها إلى خمسة أقسام: نصوص إبلاغية (خبر، تقرير، كتاب متخصص، نقد...)، ونصوص استجابة (إعلان دعاية، تعليق، قانون، طلب...)، ونصوص التزام (عقد، شهادة ضمان...)، ونصوص اتصال (شكر، خطاب تعزية...) ونصوص إعلان (وصية، مستند تعيين.(...

2- **معايير سياقية تراعى السياق التواصلي** في تصنيف النصوص، بالاعتماد على مستويي الموقف، الأول: (شكل التواصل) الذي يمكن التمييز فيه بين خمس وسائل رئيسة بناء على الوسيلة، وهي: التواصل المباشر(وجهًا لوجه)، والهاتف، والإذاعة، والتلفاز، والكتابة. أما المستوى الثاني، فهو (مجال الفعل) الاجتماعي، الذي ينقسم إلى بدوره إلى ثلاثة مجالات: مجال خاص، ومجال رسمي، ومجال علني.

3- **معايير تركيبية تتعلق بـ (موضوع النص)**، الذي يعتمد على التحديد الزمني له متناسبا مع وقت الكلام، والعلاقة بين المرسل والمتلقي في إطار التوجيه المكاني. كما يعتمد على شكل البسط الموضوعي، فهناك بسط وصفي، وسردي، وإيضاحي، وحجاجي، والكيفيات التي يتم بها تحقيق أشكال البسط الموضوعي لها أهمية في التمييز بين أنواع النصوص، فمن المفترض أن يكون لكل شكل أساسي صيغ تحقيق محددة[6]، إن النص ليس مجرد متواليةٍ لسانية، أو مجموعة كلمات مجتمعة كيفما اتَّفق، وبدون ترتيبٍ وتنظيم، بل هو بناء لسانيٌّ مُحكم، وكما قال برينكر فالنص هو: "تتابُع متماسك من علامات لغوية[7]. وبذلك تكون النصية مجموعةً من السمات التي تجعل ملفوظًا ما أو متتالية لغوية نصًّا، وتنقسم هذه المعايير إلى معايير **مرتبطة بالنص في ذاته) الاتساق والانسجام(، ومعايير مرتبطة بالمؤلف والمتلقي (القصدية والإعلامية والتقبلية)**، ومعايير مرتبطة بالسياق الخارجي (**الموقفية والتناص)**

1-الاتساق: حيث نجد أنه تماسُكٌ بين عناصر النص يَسمح بتلقِّي النص وفهْمه، وذلك من خلال العديد

من العناصر اللغوية التي تُحقِّق نصية النص، بالإضافة إلى تميُّزه بدلالة جامعة تُحقق وَحدته النصية الكلية؛ أي: ما يجعله نصًّا باعتباره "وَحدةً لغوية مُهيكلةً، تَجمع بين عناصرها علاقاتٍ وروابطَ معينة"

2-**الانسجام** : انسجام الكلام يعني توافُقَ أجزائه وعدم تعارُضِها، فالكلام المنسجم هو الذي "انتظم ألفاظًا وعباراتٍ مِن غير تعقيد، وكان سلسًا أنيقًا، متوافقًا في الأفكار والشعور والميول"،و"يكاد يسيل رِقةً لعدم تكلُّفه، فالانسجام له عدة ترجمات في اللغة العربية، أشهرها الحَبْكُ، والتماسك الدلالي والتنسيق

الهوامش

1- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، ط1،دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة ،2000، ص:50

2- جون روبرت فيرث {1890-1960} عالم لغوي من أصل إنجليزي، أنه من رواد اللغويات في بريطانيا خلال فترة الخمسينات من العصر، عمل أستاذا عام 1919 في جامعة بنجاب، ثم عمل في الصوتيات في لندن بجامعة لندن.

3- ينظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: سعيد حسن البحيري، ص 101 - 107 .

4- ينظر النص: ممارساته وتجلياته: منذر عياشي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 96-،ص:55.

5- ينظر : انفتاح النّصّ الروائي ، النصّ والسِّياق ، و في اللسانيّات ونحو النّصّ : إبراهيم محمود خليل ، دار الميسرة للنشر والتوزيع ، ط1 ، الأردن ، 1427هـ – 2007م ، ص 196.

6- ينظر علم اللغة و الدراسات الأدبية: برند شبلنر، ترجمة محمود جاد الرب، جامعة الملك سعود الريـاض، د .ط: 180.

7- نقلًا عن: سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون - لونجمان، ط 1، 1977 ص 108